مألوفاً عنده وتافهاً في نظره. وإذا هو عاد إليه فبغير ما حماسة أو لهفة. ولا يندر أن يأخذ قلمه الرصاص ويمضي يشوّه رسومه أو يمزّق بعض صفحاته ليصنع منها طيارة يطلقها مع الريح مشدودة بخيط في يده.

كذلك حال الناس مع الطبيعة. فهم يطلّون عليها أوّل ما يطلّون بأبصار مسحورة وألباب مفتونة. فلا يلبثون أن يألفوها على التمادي. فإذا بها لا فتنة ولا سحر. فالشمس خزّان لتوليد الحرارة والنور، والقمر والنجوم سُرج معلقة في الفضاء للسائرين في الليل وللمدلّهين والمتيّمين. والبحار معابر للناس وللأمتعة ما بين برّ وبرّ، والأشجار أشياء لا قيمة لها إلّا بأخشابها وثمارها وظلالها. والطير والحيوان كائنات يُنتفع بلحومها وريشها وجلودها أو يُدرأ خطرها بالسمّ والبارود.

هكذا تتحوّل الطبيعة في أعين الناس من مدرسة شاملة وكتاب عجيب ومعلّم لا مثيل له بين المعلّمين إلى مخزن هائل يتهافتون على ما فيه من متعة للبطن وسلوى للعين والأذن غير آبهين لما فيه من غذاء للفكر والخيال والوجدان وغير حاسبين حساباً إلّا لساعة هم فيها وإلّا لحاجة ملحاحة من حاجات اللحم والدم. والأفظع من ذلك أن الكثير منهم